

صورة "القدس" في رسائل القاضي الفاضل (١٠٩٦ هـ)

علاء الدين زكي

التعريف بالقاضي الفاضل (١٠٣٤-١٠٩٦ هـ) . I

اسمه ونسبه .

هو أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد علي بن القاضي السعيد محمد بن الحسين بن أحمد بن الفرغ بن أحمد اللخمي البيساني العسقلاني المولد المصري الدار .

لقب بمحيي الدين ، والأسعد ، ولكن اللقب الذي غلب عليه واشتهر به هو الفاضل .

وينتمي القاضي الفاضل في نسبه إلى قبيلة عريقة الجذور بأرض فلسطين هي قبيلة لخم ، ولهذا قيل اللخمي ، كما ينتمي من حيث المكان إلى مدينتين عريقتين في فلسطين الأولى : مسقط رأسه ، ومحل ولادته عسقلان ، ومن ثم قيل العسقلاني ، والثانية : بيسان ، وإنما قيل له البيساني لأن والده ولي قضاء بيسان .

حياته .

قضى القاضي الفاضل في عسقلان ما يربو على سبعة عشر عاما ، وعني أبوه القاضي الأشرف بتربيته فوجهه إلى التعلم ، ليدرس القرآن الكريم والحديث الشريف وعلوم اللغة .

تسعى هذه الدراسة إلى تقديم صورة واضحة المعالم لمدينة "القدس" كما تتجلى في رسائل القاضي الفاضل . ابتداء الباحث بموجز تعريفي لحياة هذا الكاتب العلم ، وكشف عن مكوناته الثقافية ، التي أثمرت فيما بعد فنا أدبيا خالدا على مر العصور ، فهو رأس مدرسة فنية في الكتابة ، بشهادة معاصريه ، وأتراه . ثم بين الباحث في الدراسة الموضوعية تجلي صورة "القدس" في رسائل القاضي الفاضل قبل الفتح القدسي ، وسنة الفتح ٥٨٢هـ ، وبعد سنة الفتح .

وفي الدراسة الفنية ، ناقش الباحث هذه الرسائل الفاضلية مناقشة أسلوبية ، فبين بناءها الفني الذي تشترك فيه مع سائر الرسائل في ذلك العصر ، من مفتح وعرض للموضوع وخاتمة مناسبة ، ثم عرض للغة هذه الرسائل ، وتراكيب ألفاظها ، ومناسبتها للمواضيع التي قيلت فيها ، وفسر الغريب منها ، وسبب شيوعه فيها ، والقاضي الفاضل في كل هذا يصدر عن روح عصره ، ويعبر عن ذائقة ذلك العصر الفنية والنقدية ، تلك التي تميزه عن سائر العصور ، فكان بحق ابن ذلك العصر ، والشاهد على الأدب العربي النثري فيه .

واستمرت هذه العلاقة بين الفاضل وصلاح الدين حتى وافته المنية صلاح الدين في صفر من سنة ٥٨٩هـ، وبموت صلاح الدين تبدلت الأحوال ، وتقسمت الدولة شيئا وأحزابا ، فتنزه الفاضل عن ملابسة الدولة ، ومخالطة أهلها لما رأى من سوء الحال ، ولكنه لم يرضَ على أبنائه بمشورة أو رأي ، وبقي كذلك إلى أن وافته المنية سنة ٥٩٦هـ، وقد بلغ من العمر سبعين عاما مباركا .

أفلاقه .

وقد كانت له صفات خلقية تميزه ، فقد كان " نزيها عفيفا ، قليل اللذات ، كثير الحسنات ، دائم التهجد ، ملازما للقرآن ، يكثر زيارة القبور ، ويشيع الجنائز ، ويعود المرضى ، وكان له صدقات ومعروف كثير في الباطن ، ولأصحاب الفضائل عنده موقع يحسن الإضافة إليهم ، ولا يمن عليهم ، ويؤثر أرباب البيوت ، ومن كان خملا من ذوي النباهة ، ويحب الغرباء ، ولم يكن له انتقام من أعدائه ، بل يحسن إليهم ، وكان دينا ، شديد التواضع ، لباسه لا يساوي دينارين ، وثيابه البياض ، ولا يركب معه أحد ، ولا يصحبه سوى غلام له " (٣) . إنه بقية من الصحابة - رضوان الله عليهم - ولا عجب إذن أن يتخذ السلطان الناصر صلاح الدين ناطقا باسمه ، ومبلغا عنه ، رحمهما الله ، وجزاها عن الإسلام وأهله خير الجزاء .

تأليفه .

وقد عمل على تكوين القاضي الفاضل ثقافيا ، أساتذة أجلاء ، فقد تعلم الكتابة على يدي علمين من أعلام الكتابة في الخلافة الفاطمية ، هما الموفق بن الخلال وابن قادوس ، كما أنه سمع الحديث من السلفي ، وابن عساكر ، وأبي محمد العثماني ، وأبي طاهر بن عوف ، وعثمان بن سعيد بن فرح العبدي .

ويعد أن أحس الأب بميل ابنه إلى الأدب ، رأى أن يرسله إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة ، ليتدرب فيه على فن الكتابة ، فسافر القاضي الفاضل إلى القاهرة أيام الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله (٤٤٥-٥٤٣ هـ) والتقى برئيس الديوان آنذاك الموفق بن الخلال ، فتعلم على يديه فن الكتابة ، فتوافرت له الخبرة التي تؤهله لأن يكون من أجود الكتاب ، بل رئيسا لديوان الإنشاء فيما بعد .

علاقته بالناصر صلاح الدين .

ولما مات أسد الدين شيركوه - عم صلاح الدين الأيوبي - تولى صلاح الدين الوزارة سنة ٥٦٤هـ ، وقد أدى القاضي الفاضل دورا خطيرا في تولية صلاح الدين لوزارة الخليفة الفاطمي العاضد ، ومن هنا توطدت العلاقة بين صلاح الدين والقاضي الفاضل .

وفي سنة ٥٦٧هـ قطع صلاح الدين الخطبة باسم العاضد ، وخطب باسم الخليفة العباسي ، وبلغ ذلك العاضد فمات في الجمعة الثانية .

ومن هذا التاريخ تحولت مصر من دولة شيعية إلى دولة سنية ، وملك الناصر صلاح الدين زمام الأمور ، وتمكن القاضي الفاضل منه غاية التمكن ، وصار القبض والبسط إليه وفوض صلاح الدين إليه أمور دولته ، وصار لا يصدر إلا عن رأيه ، واستنابه في جميع أموره ، وجعله وزيره ، وصاحب إنشائه .

ولا يعلم أن كاتبنا بلغ من المرتبة عند مخدومه ما بلغه الفاضل عند صلاح الدين ، حتى أنه كان يقول : " ما فتحت البلاد بالعساكر إنما فتحها بأقلام القاضي الفاضل " (٢) .

منها ، والذي تم العثور عليه ، فهو ثماني مجموعات ، هذا بالإضافة إلى مجموعات من رسائله ، نقلتها إلينا المصنفات الأدبية والتاريخية (٥) .

المبحث الأول : صورة " القدس " في رسائل القاضي الفاضل (دراسة موضوعية)

أولاً : صورة " القدس " في رسائل القاضي الفاضل قبل الفتح.

تألم صلاح الدين الأيوبي لحال المسلمين ، وأسف لانصرافهم عن أداء فريضة الجهاد ، وتضربهم في إنقاذ بيت المقدس من القيد الذي يطوقه ، ويبدو هذا الأمر واضحاً في رسالة للقاضي الفاضل أنشأها سنة ٥٧٤هـ ، يعجب فيها من حماسة العدو ، وتخاذل المسلمين ، يقول : " وغير خاف على مولانا همة الفرنج بالقدس برا وبحرا ، ومركبا وظهرا ، وسلما وحربا ، وبعدا وقربا ، وتوافيهم على حماسة ، وهو أنف في وجه الإسلام ، ومسارعتهم إلى نصرة أهليه بالأرواح والأموال على مر الأيام ، ومعاذ الله أن يستبعدوا في الضلال ، ونصرف نحن عن الحق ، ويضيق في التوسعة على أهله سعة المجال " (٦) . ونستنتج من هذا النص محورا أساسيا في الطريق إلى بيت المقدس ، عالجه الأدب أيما علاج ، وهو الدعوة إلى تحرير القدس ، وتحفيز الهمم لذلك ، ونفي التقاعس والتخاذل عن نفوس المتخاذلين (٧) .

لقد كان غرض صلاح الدين من الجهاد ، هو تطهير بلاد المسلمين من الغزاة الصليبيين ، وليس طمعا في مال أو حكم ، ولذلك سعى إلى تحقيق الوحدة بين بلاد المسلمين ، مصر والشام على وجه الخصوص ، وهذا هو المحور الثاني الذي توقف عنده الأدب (٨) ، وكان عوننا لتحقيق النصر ، عبر التعبئة المعنوية الثقافية الفكرية .

وكان محبا للعلم وأهله ، بنى مدرسة في القاهرة عرفت باسم المدرسة الفاضلية ، وكان يفتني الكتب من كل فن ، ويجتلبها من كل جهة ، وله نسخ لا يفترون ، ومجلدون لا يسأمون ، حتى قيل إن عدد كتبه بلغ مئة ألف كتاب وأربعة عشر ألف كتاب ، وهذا قبل أن يموت بعشرين سنة !

مكانته العلمية .

وحقيق لمثل هذا العالم الفذ أن يمدح ، فقد أورد العماد الأصفهاني أن القاضي الفاضل " مدح بمئة ألف بيت من الشعر " وقال العماد في مدحه : " ربّ القلم والبيان ، واللسن واللسان ، القريحة الوقادة ، والبصيرة النقادة ، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة . فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع . ي اخترع الأفكار ، ويطلع الأنوار ، ويبدع الأزهار . وهو ضابط الملك بأرائه ، رابط السلك بالألائه . إن شاء أنشأ في يوم واحد بل في ساعة واحدة ما لو دون لكان لأهل الصناعة خير بضاعة . أين قس عند فصاحته ، وأين قيس في مقام حصافته ، ومن حاتم وعمرو في سماحته وحماسته ؟ " (٤) .

آثاره .

للقاضي الفاضل آثار عديدة ، أبرزها مجموعة من الرسائل ، وديوان شعر ، كما كتب متجددات أو يوميات أو تعليقات تاريخية .

رسائله .

الذي يهمنا هنا هو الحديث عن رسائله المطبوع منها والمخطوط ، إذ لم يطبع من رسائله سوى أربع مجموعات هي : " إنشاءات القاضي الفاضل " و " الدر التنظيم من ترسل عبد الرحيم " و " رسائل عن الحرب والسلام " و " فصوص الفصول وعقود العقول " . أما المخطوط

متحاسدة بعثوها ، ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة ، لما عز عليه أن يكون كثير المشاركين ، ولا ساءه أن تكون الدنيا كثيرة المالكين ، وإنما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة " (١١) .

وكتب صلاح الدين إلى الخليفة ، غير مرة ، ليعين له أنه قد نذر نفسه للجهاد ، كي يخلص الإسلام من الغزاة ، ويستعيد بيت المقدس ، ويؤكد حتمية الوحدة ، كما في رسالة كتبها القاضي الفاضل ، على لسانه ، إلى ديوان الخليفة في بغداد ، قال : " ... والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة ، ويؤكد الدعوة ، ويجمع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويضمن الرأفة ، ويفتح بقية البلاد " (١٢) . فعمد صلاح الدين إلى توحيد البلاد بالقوة أو بالسلم ، بعد أن أعذر إلى الله ، وإلى عباده ، وكان بذلك يشق طريقه نحو هدفه الواضح المعلوم ، تحرير بيت المقدس .

ثانياً : صورة " القدس " في رسائل القاضي الفاضل

سنة الفتح

كانت السنة التي تم فيها فتح القدس (٥٨٢ هـ) خصبة الإنتاج الأدبي ، شعراً ونثراً (١٣) ، وكأن قرائح الشعراء العرب تتفتق عند النصر ، وتجدد بالكثير من فن القول ، خلاف مواقف الهزيمة والاحتلال ، إذ يقصر الأدب دون مستوى الحدث ، وهذا يتضح بجلاء عند الحديث عن احتلال القدس ، وعن تحريرها (١٤) .

فهذا القاضي الفاضل يصور لنا نشوة الزمان وقد افتخر " بعصر السلطان صلاح الدين في بيت المقدس ، وفضل الله أصحاب هذا الفتح بهذه " النصر القدسية " (١٥) . وبالمقابل يصور لنا اليأس الذي كان قد حل بالمسلمين ، مما جعلهم ينظرون إلى أن الفتح القدسي حلم

وفي هذا الصدد نجد صلاح الدين يستنكر خيانة أمراء المسلمين من الحلبين والموصل ، كما يبدو في كتاب كتبه القاضي الفاضل إلى بغداد ، على لسان صلاح الدين ، يقول فيه : " والمملوك - صلاح الدين - بين عدو إسلام يشاركونه في هذا الاسم لفظاً ، ولا ينوون لما استحفظوا حفظاً ، وعدو كفر ، فما يجاورهم إلا بلادهم ، ولا يقارعهم إلا أجناده " وطلب صلاح الدين من الخليفة أن يأمر ملوك الأطراف جميعاً " أن يكونوا للملوك على المشركين أعواناً ، وأن يتمثل أمر نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - في أن يكونوا بنياناً فيعضدوه إذا سعى ، ويلبوه إذا دعا ، ولا يقعدوا عن المعاضدة في فتح بيت المقدس الذي طابت النفوس عن ثاره ، وطأطأت الرؤوس تحت عاره ... فإن قعدت بهم العزائم ، وأخذتهم في الله لومة لائم ، فلا أقل من ألا يكونوا أعواناً عليه يلفتونه عن قصده ، حريصين على اتصال المكروه إليه " (٩) .

وفي رسالة أخرى للقاضي الفاضل ، يقدم لنا غاية صلاح الدين في الوحدة ، بصورة جلية ، كما يبدو في قوله ، مخاطباً رسول قطب الدين ينال بن حسان المنبجي : " اعلم أنني وصلت إلى الشام لجمع كلمة الإسلام ، وتهذيب الأمور ، وحياطة الجمهور ، وسد الثغور ، وتربية ولد نور الدين ، وكف عادية المعتدين " ولم يكن صلاح الدين يريد " إلا ما تكون عليه يد الله ، وهي الجماعة " . وكان غرضه من ضم الموصل " أن يكون الموصل إلى القدس وسواحلها " (١٠) ، كما بين القاضي الفاضل في رسالته .

ثم يبين في رسالة أخرى أن الوحدة هي السبيل إلى النصر ، واسترداد بيت المقدس ، فيقول على لسان صلاح الدين إلى الخليفة في بغداد ، إنهم لا يختارون إلا أن : " تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها ، لا

بنشوة النصر ، يقول : " واستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تشفى بالماء غلهم " (٢٠) .

وقد كان تحرير بيت المقدس عامل أمن على المسلمين ، إذ أسقطت المكوس بأمر من السلطان صلاح الدين ، ويصور القاضي الفاضل أثر ذلك في النفوس ، ويربط بين صنيع صلاح الدين والحديث عن بيت المقدس وتحريره من الاحتلال الصليبي . ويبدو ذلك جليا في حديثه عن " انقطاع المكاسين عن جدة ، وعن بقية السواحل " (٢١) .

أما صورة فاتح بيت المقدس ، فقد تجلت عند القاضي الفاضل ، بوصفه صلاح الدين مهتما بالجهاد في سبيل الله ، حتى كان مراده وأهم مقاصده ، ويصوره متأهبا " للخروج نحو الكفار ، لا تسأم رايته النصب ، ولا جهة سيره الرفع ، ولا جيشه الجر ، ولا يصغي إلى قول خاطر الراحة ، ولا يجيب دعوة الفراش الممهّد ، ولا يعرج على الظل المدد ، ولا دمية القصر المشيد " كما جاء في رسالة كتبها سنة ٥٧٩هـ (٢٢) . ويصوره في المنشور الذي كتبه على لسان الإمام العاضد الفاطمي سنة ٥٦٤هـ ، عاشقا للجهاد ، يقول : " والجهاد أنت رضيع دره ، وناشئة حجره ، وظهور الخيل مواطنك ، وظلال الخيل مساكنك ، وفي ظلمات قساطله تجلى محاسنك ، وفي أعقاب نوازله تتلى مناقبك ، فشمّر عن ساق القنا ، وخض فيه بحرا من الطبأ " (٢٣) .

كما يصوره " آخذا في أسباب الجهاد " ويبين أن تكاليف الجهاد قضت بـ " فتح الفتوح العظام في أقل الأيام ، وفصل القضية بين أهل الإسلام وأهل الطغام " ، ويهنئه بما فتح الله عليه من محبة الجهاد (٢٤) .

قد لا يتحقق . ولما تحقق ، كاد المسلمون لا يصدقون ما حدث . يقول : " واسترد المسلمون تراثا كان عنهم أبقا ، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به على النأي طارقا " (١٦) .

وبذلك الفتح القدسي ابتهج المسلمون ابتهاجا عظيما ، وأخذ الكتاب يرسلون كتبا تهنئ بالنصر ، وتتحدث عن آثاره في مختلف المجالات ، وهذا ما فعله القاضي الفاضل ، إذ أرسل رسالة إلى الخليفة الناصر لدين الله ببغداد ، على لسان صلاح الدين ، يهنئه بفتح القدس وما معه ، واقتلاع ذلك من أيدي الفرنج ، وإعادته إلى ما كان عليه من الإسلام (١٧) .

وفي هذه الرسالة يبين القاضي الفاضل أثر الفتح الكبير على الإسلام والمسلمين ، فيه " صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصائرهما ، واستتبت عقائد أهله على أبين بصائرهما ، وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط ، وصدق الله أهل دينه " وهو هنا يصور الأرض المقدسة بأنها " أضحت الطاهرة وكانت الطامث " ثم يقول : " فبيوت الشرك مهدومة ، ونيوب الكفر مهتومة " (١٨) .

ويصور الأدب الرباط المقدس بين الأماكن المقدسة فلسطين والحجاز ، الأقصى المبارك ، والصخرة المشرفة ، والمسجد الحرام ، والمسجد النبوي ، فالقاضي الفاضل يصور الحجر الأسود يهنئ الصخرة المشرفة بخلاصها وتحريرها ، وبت عصمتها من العدو الصليبي حربا (١٩) .

وقد تردد صدى تخليص الصخرة المشرفة ، والمسجد الأقصى المبارك ، من الاحتلال الصليبي في رسائل القاضي الفاضل ، فهو يصور كيف خفقت أعلام المسلمين فوق الأقصى ، والتقت قبلهم على الصخرة ، وقد أحسوا

كثرة أسلحتهم ، وكثرة عددهم ، ويقابل بين ما كانوا عليه قبل الفتح في شجاعتهم وقوة عزائمهم ، وما آلوا إليه بعده ، كما يبدو في قوله : " وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شققا ، وطارت فرقه فرقا ، وقل سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا وحصى ، وكلت حملاته ، وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة ، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ، ونام جفن سيفه ، وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون ، وجدعت أنوف رماحه ، وطالما كانت شامخة بالمنى أوراغفة بالمنون " ويصور فرسانه الشجعان مذعنين ، لا ملجأ لهم ولا نصرة ، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، ويصورهم وقد هزموا هزيمة لا جبر لها ، وصرعوا صرعة لا حياة لكفرهم بعدها ، كما يصور أسراهم وقتلاهم (٢٨) .

وفي صورة أخرى يبين لنا القاضي الفاضل كيف خرج " باليان بن بارزان " - أحد قادة الصليبيين - طالبا تسليم بيت المقدس بالسلام والأمان ، وقد بدا ذليلا . ويقابل بين ما كان عليه القائد الصليبي ، وما آل إليه من سوء المصير ، يقول : " وفي الحال خرج طاغية كفرهم ، وزمام أمرهم ابن بارزان ، سائلا أن يؤخذ البلد بالسلام لا بالعنوة ، وبالأمان لا بالسطوة ، وألقى بيده إلى التهلكة ، وعلاه ذل الملكة بعد عز الملكة ، وطرح جبينه في التراب ، وكان لا يتعاطاه طارح " . ويصور المفاوضات التي جرت بين المسلمين وعدوهم من أجل التسليم ، وكيف قبل منهم ذلك " عن يد وهم صاغرون " (٢٩) .

ويصور القاضي الفاضل في رسالته القدسية ، كيف أسرت سرايهم ، وكيف أسر مليكهم ، وبيده صليب الصليبيات ، يقول : " وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه ، وأكد

ويظهر في الأدب بصورة جلية الصراع في العقيدة بين المسلمين والصليبيين ، فالقاضي الفاضل يصور العدو الصليبي كافرا تقلص ظل رجائه ، وقد كان مبسوطا قبل الفتح القدسي . ويصور ما آلت إليه بيوت الشرك وطوائفه ، وهم أصحاب الشمال ، إذ يبين كيف نقل الله " بيت المقدس من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة " وكيف جعل ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا ، كما يصور كيف ارتفعت كلمة التوحيد ، وكانت طرائقها مسدودة ، وكيف أقيمت الصلوات الخمس ، وجهرت الألسن بالله أكبر (٢٥) .

كما يظهر الأدب معالم الصورة التي آل إليها العدو الصليبي بعد الهزيمة ، فيذكر القاضي الفاضل أنه لما نزل المسلمون القدس رأوا فيها " جمعا كيوم التناد " ، ويصورهم أولي " عزائم قد تألفت وتألبت على الموت " قبل ما حل بهم من هزائم ، ولكن ذلك كله لم يجد فتيلا ، فقد تحولت سيوفهم إلى عصي ، وكلت حملاتهم ، وعثرت أقدامهم ، وغضت عيونهم " (٢٦) .

" ويركز الأدب العربي على تصوير ما آلت إليه الجيوش الصليبية في مصيرها . ولا تكاد قصيدة قدسية ، أو رسالة قدسية ، أو خطبة قدسية ، أو كتاب قدسي ، يخلو من تصوير ما حل بالعدو الصليبي الغازي من هزائم ، وما آلت إليه جيوشهم الجرارة ، ويركزون على ما حل بملوكهم وقادتهم ، والمصير الذي آلوا إليه ، ويسخرون منهم سخرية مريرة " (٢٧) .

وفي رسالة أخرى يسهب القاضي الفاضل في رسم صورة هزيمة الصليبيين ، فيقول : " وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة ، فأدلجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة " . ويصور المآل الذي آلوا إليه ، على الرغم من

منها الفكر ، وقذفت بشرر كالجملات الصفر " إلى أن يقول : " تقدم الخادم صلاح الدين فاقتلع بيده الأحجار من أسسها ، ومحا حروف النيران من طرسها " .

ويبين أنه كان فيه " نحو ألف زردية ، وكان المقاتلة فيه ثمانين فارسا بغلمانهم ، وخمسة عشر مقدا للرجال ، ومع كل مقدم خمسون رجلا ، وكان فيه أصحاب صناعة كالبناء ، والمعمار ، والحداد ، والنجار ، والصيقل ، والسيوف ، وصانع أنواع الأسلحة . وكان فيه أكثر من مئة أسير من المسلمين ، كما ملنت فيه أقوات ولحوم تكفي لسنين عديدة " ويصف القاضي الفاضل المعركة في أول أيامها ، وكيف تمت عملية النقب ، وحشيت الثقوب بالأحطاب والنيران إلى أن وقعت الواقعة ، وانشقت الأبرجة فهي يومئذ واهية " ثم يصف اشتعال النيران في أرجاء الحصن ، واحتراق مقدم الحصون ، وكيف أصبح الحصن أثرا بعد عين (٢٣) .

ويصور القاضي الفاضل حصن (الكرك) ، ويتحدث عن حصاره ، فيقول : " وأما الكرك فكفات المنجنيقات عليه متظافرة ، وحجارتها على من فيه حاجرة ، وقد جدعت أنوف الأبرجة ، وكل جوانبها وعرة المرتقى " . ويصفها في موضع آخر مستلهما القرآن الكريم ، فيصور عذاب الله واقعا بالحصن وأهله " ما له من دافع ، وأن دليل النصر قد ظهر وما دونه مانع ، وأما المنجنيقات ، فقد نكأت في الأبراج بالهدم ، وفي الأعلاج بالهتك " (٢٤) .

ويصف القاضي الفاضل حصن (كوكب) بأنه " كرسى الاسبتارية ، ودار كفرهم ، ومستقر صاحب أمرهم ، وموضع سلاحهم وذخرهم " . ويتحدث عن موقعها المميز ، ووقت النزول عليها .

وصله بالدين وعلائقه ، وهو صليب الصليبوت " ، ويصور مكانة ذلك الصليب في نفوسهم ، فقد كانوا يقاتلون تحته أصلب قتال وأصدقته ، ويرونه " ميثاقا عليه أشد عقد وأوثقه ، ويعدونه سورا تحضر حوافر الخيل خندقه " (٢٠) .

" ويصور الأدب العربي حصونهم ، وقلاعهم ، وأبراجهم التي احتلوها أو أقاموها . ولكن صورتها لا تبدو جلية في الشعر الذي قيل حول تحرير البيت المقدس ، ولكنها تبدو جلية في النثر " (٢١) .

فهذا القاضي الفاضل يصف حصن (بيت الأحزان) في رسالة كتبها إلى بغداد ، فيصور عرض حائطه ، وحجارته العظيمة ، التي يزيد عددها على عشرين ألف حجر ، ويحدد تكلفة الحجر الواحد منها ، ويبين أنواع الحجارة التي حشيت بين الحائطين ، يقول : " ووضعت له عظام الحجارة ، كل فص منها ، من سبع أذرع إلى ما فوقها وما دونها ، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر ، لا يستقر الحجر في مكانه ، ولا يستقل في بنيانه إلا بأربعة دنابر فما فوقها ، وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم المرغم بها أنوف الجبال الشم ، وقد جعلت سفينه بالكس الذي إذا أحاطت قبضته بالحجر مازجة بمثل جسمه وصاحبه بأوثق وأصلب من جرمه ، وأوعز إلى خصمه من الحديد بأن لا يتعرض لهدمه " (٢٢) .

ثم يصف النار التي اشتعلت فيه ، فاقتلعت حجارتها ، ومحيت رسومه ، كما يبدو في قوله : " والنار به مطيفة ، وعليه مشتملة ، وعذبات ألسنتها على تاجه مسدلة ، ومن خلفه مسبلة ، ونارهم قد أطفأها الله بنار تلك الواقعة ، ومنعتهم قد أذهبها الله بتلك الأبرجة الساجدة ، ونفحاتها حميمية وقودها الناس والحجارة ، فولجت النار من موالج

ذلك بقدم آلاف جيوش الفرنج ، للعمل على استرداد بيت المقدس ، بل احتلاله ثانية ، يقول مصورا استنجد الفرنج بالشام بالفرنج في الغرب : " فأجابوهم رجالا وفرسانا ، وشييا وشبانا ، وزرافات ووحدانا ، وبرابرا وبحرا ، ومركبا وظهرا ، وركبوا إليهم سهلا ووعرا ، وبدلوا ماعونا وذخرا ، خرج كل يلبي دعوة بطركه ، وخرجت لهم عدة ملوك " (٣٩).

ويصور الفاضل الصراع في العقيدة بين المسلمين والصليبيين ، ثم يصور الإمدادات التي كانت تصل العدو ، فيقول : وكانت " لا تشرق شارفة إلا طلعت على العدو من البحر طالعة تعوض من الرجال من قتل ، وتخلف من الزاد ما أكل ، فهم في كل يوم في حصول زيادة ، أعطاهم البحر ما منعهم البر " ويصور مراكبهم وحصارهم عكا (٤٠) .

ثم جرت الخلافات بين أبناء صلاح الدين بعد موته ، فاعتزل القاضي الفاضل الكتابة ، وكانت قد تقدمت به السن ، فلا نجد من الآثار بعد ذلك ما يأذن لنا باستجلاء صورة القدس في رسائله أو أدبه بشكل عام ، رحمه الله وأسدى له أعظم المعروف ، وأجزل العطاء .

المبحث الثاني : صورة " القدس " في رسائل القاضي الفاضل (دراسة فنية)

جرى الكتاب على افتتاح رسائلهم بالبسملة ، و" بالدعاء للديوان العزيز ، وتارة بالدعاء لما يعود عليه ، وتارة بالصلاة ، وتارة بالسلام . وربما افتتحت المكاتبة بأية من القرآن الكريم مناسبة للحال " (٤١) . والمباني والافتتاحات أصل من أصول المكاتبات ، والحسن فيها يعود إلى الافتتاح بالتحميد ، أو بالسلام ، أو بما يوحي بتعظيم المكتوب إليه ، أو إلى " ما يوجب التحسين ، من سهولة اللفظ ، ووضوح المعنى ، وتجنب الحشو " (٤٢) .

ويصور النصر وأثره على الإسلام والمسلمين ، ويصف الشتاء ، وهو الفصل الذي فتح فيه هذا الحصن (٣٥) .

ومهما يكن من أمر فقد كان للفتح القدسي أثر فكري كبير ، إذ عاد المسجد الأقصى إلى أداء دوره في الحياة الفكرية ، وأنشئت المدارس ، والزوايا ، والخوانق ، والرباطات ، وقد قامت بأداء دورها في الحركة الفكرية في بيت المقدس (٣٦) .

ثالثا : صورة " القدس " في رسائل القاضي الفاضل بعد الفتح

يتردد صدى الهدنة التي تم توقيعها بين المسلمين والصليبيين بعد الفتح ، بالإضافة إلى جملة من الأحداث والوقائع ، يتردد صدى ذلك في الأدب العربي ، ولكنه صدى باهت في الشعر ، جلي في النثر ، فقد قلت الأشعار في هذا المجال ، واكتفت بالحديث عن قصد الفرنج بيت المقدس ، والهدنة ، بينما نجد النثر يصور هذه الأحداث ، ويبين صداها في النفوس ، كما يصور المشاعر والأحاسيس حولها (٣٧) .

وفي هذا الصدد نجد القاضي الفاضل يصور في رسالة كتبها على لسان صلاح الدين ، إلى ملك المغرب يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن ، يستجد به أثناء حصار الفرنج عكا ، في ٢٨/شعبان/٥٨٦هـ ، يصور قدوم ملك الألمان فردريك ببروسا في جيوش جرارة ، وأموال وفيرة ، كما يصور مصير فريدريك ، ويشير في رسالته إلى جهاد صلاح الدين ، وفتح بيت المقدس ، وهومنة الله العظمى على الإسلام (٣٨) .

وفي رسالة ثانية كتبها إلى ملك المغرب ، في شعبان من سنة ٥٨٦هـ ، يوضح القاضي الفاضل أسباب ما حل بالمسلمين وبلادهم ، في أواخر عهد صلاح الدين . ويتمثل

يتجزأ من الرسائل القدسية زمن الحروب الصليبية، وفي الرسالة التي بعثها القاضي الفاضل إلى ديوان الخلافة العباسية، دليل أكيد على هذا (٤٦).

وأما الخاتمة، وهي آخر ما يبقى في ذهن السامع، فالقلقشندي يشترط على الكاتب أن يأتي في المكاتبة بحسن الاختتام، ويرجع الحسن عنده إلى معنيين، الأول: " أن يكون الحسن فيه راجعا إلى المعنى المختتم به، إما بمعطاة الأدب من المرء إلى الرئيس ونحو ذلك، وإما بمقتضى التوقير من الرئيس إلى المرؤوس كالاختتام بالدعاء، ونحو ذلك مما يقع في مصطلح كل زمن.

والمعنى الثاني: أن يكون الحس فيه راجعا إلى ما يوجب التحسين من سهولة اللفظ، وحسن السبك، ووضوح المعنى، وتجنب الحشو، وغير ذلك من موجبات التحسين" (٤٧).

وهذا ما نلمسه في مختتم رسائل القاضي الفاضل، فهو يختتم رسالته القدسية اختتاماً متناسباً وهدف الرسالة المبشرة بالفتح العظيم، مبيناً أن السلطان صلاح الدين جاد في فتح سائر الثغور، يقول: " وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص، ولا بما سوى المشافهة تتلخص، فلذلك أنفذنا لسانا شارحا، ومبشرا صادحا، يطالع الخبر على سياقته، ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته" (٤٨).

ومن حيث الأسلوب، فإن الحديث عن الجهاد، أو وصف الحروب، يقتضي " استخدام أسلوب أدبي يتسم بالقوة والجزالة، فالأسلوب واللغة يتأثران بالأفكار والمعاني التي يتضمنها العمل الأدبي" (٤٩).

وهذا ما نجده في مقدمات رسائل القاضي الفاضل القدسية، فهو يفتح رسائله بالبسملة، وبالبدعاء للخليفة العباسي الناصر لدين الله، فيدعو له بالبقاء، فيقول: "أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري" (٤٣). وقد أشار القلقشندي إلى أن المقصود بالديوان هنا ديوان الإنشاء، وواضح هنا المجاز المرسل الذي علاقته محلية، فالمقصود هو الخليفة، الذي إن دام عزه دام عز ديوانه.

أما النبوي، فهو لقب من ألقاب الخلافة العباسية، وهو نسبة إلى العباس عم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وانتساب الأشراف إلى ابنته فاطمة، رضي الله عنها، وفي هذا إشادة بالخليفة العباسي، ومدح له من المفتح بالنسب الطاهر الكريم، ونجد هنا " براعة استهلال، وتعظيم للمكتوب إليه" (٤٤).

أما من حيث الموضوع، فإننا نستطيع القول بوجود وحدة موضوعية في الرسائل القدسية، إذ " تصور كل منها الفتح وآثاره، والفتح، والعدو المحتل، والمركة، وهي العناصر المشتركة التي تقوم عليها الرسالة القدسية، وكل عنصر من هذه العناصر يرتبط بالعناصر الأخرى، وهي موضوعات مترابطة في هذه الرسائل القدسيات جميعها، على الرغم مما قد يبدو من تعدد موضوعات الرسالة الواحدة منها في الظاهر. إن الحديث عن النصر، والتغني به، والحديث عن القائد إلى النصر، والحديث عن العدو الذي آل إلى الهزيمة في تلك المعركة القدسية، يرتبط بعضه ببعضه الآخر لا محالة".

إن هذه الوحدة في الرسائل القدسيات تتمثل في وحدة الموضوع، ووحدة المشاعر التي يثيرها، وما يتصل بذلك من ترتيب الأفكار والصور ترتيباً ينتهي بالخاتمة" (٤٥). وهذا ما نجده في رسائل القاضي الفاضل، التي هي جزء لا

وجوامع ومناثر ، وجموع وعساكر ، يتجاوزها الخادم بعد أن يحرزها ، ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها ، ويحصدها منها كقرا ويزرع إيماناً ، ويحط من مناثر جوامعها صلباناً ويرفع أذاناً . فعرفهم في لحن القول ، وأجابهم بلسان الطول (٥٥) ، فقدّم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها ، وأوتر لهم قسيها التي تضرب فلا نفارقها سهامها ، ولا يفارق سهامها نصالها... (٥٦) .

وفي هذه الرسائل نجد الكتاب يستخدمون الغريب من الألفاظ ، وتعليل ذلك يتمثل في " الوصول إلى السجع ، أو الجناس ، أو غيرهما من الفنون البديعية " (٥٧) .

وقد ألبأتنا الحاجة كما في النص السابق إلى تبيان المعاني ، علماً بأن الكاتب يستطيع أن يدفع ذلك بالكلمات المألوفة ، غير أن مقتضى البديع يلزمه بإتيان أوزان معينة ، تصرف الذهن عن الفهم أحياناً ، كما في قول القاضي الفاضل : " لا يرون ماء الحديد لهم عصرة ، ولا في فناء الألفية لهم نصرة " وقوله : " لا جرم أنهم يتهافت على ناره فراشهم ، وتجتمع في ظل ظلامه خشاشهم " ، وقوله مصوراً أثر المنجنيق في الأبراج : " فشح مرادع أبراجها " لقد استخدم الفاضل لفظة " عصرة " بمعنى منجاة ، للوصول إلى السجع بين عصرة ونصرة ، واستخدم لفظة " خشاشهم " بمعنى حشرات الأرض ، يصور بها عامتهم ، للوصول إلى السجع الذي يلتزم به في رسالته ، ولكنه لم يستخدم لفظة " مرادع " للوصول إلى السجع أو الجناس ، بل استخدمها للإتيان بالغريب في حد ذاته ، ولعل في ذلك إظهاراً للمقدرة اللغوية في نظره ونظر معاصريه (٥٨) .

ويتسم أسلوب الرسائل القدسية بالإطناب والتفصيل والاستقصاء ، وهذا يتناسب وطبيعة تلك الرسائل خاصة ،

وهذا يتضح جلياً في رسالة القاضي الفاضل القدسية ، فهو يصف الحرب ، فيتحدث عن الرماح ، والسيوف ، والجيش ، وحملات العدو ، كما يتحدث عن عثرات الأقدام ، وجدع الأنوف ، وما إلى ذلك . ثم نجده يختار الألفاظ الموائمة ، أو القوالب المناسبة ، لتلك المعاني التي يتطرق إلى بيانها ، نحو قوله : " وقد كان الخادم - يقصد صلاح الدين - لقيهم للقاء الأولى فأمدّه الله بمداركته ، وأنجده بملائكته ، فكسرهم كسرة ما بعدها جبر ، وصرعهم صرعة لا يعيش معها بمشيئة الله كضر ، وأسر عليهم من أسرت به السلاسل ، وقتل منهم من فتكت به المناصل ، وأجلت (٥٠) المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار ، وعن أنصاف عجل ، فإنه قتلهم بالسيوف الأفلاق (٥١) ، والرماح الأكسار (٥٢) ، فتيلوا بتأثر من السلاح ونالوه أيضاً بتأثر ، فكلم أهله سيوف تقارضن الضراب بها حتى عادت كالعراجين وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين ، وكم فارسية (٥٣) .

ركض عليها فارسها السهم إلى أجل فاختلته ، وفغرت تلك القوس فاها فإذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة فافترسه ، وكان اليوم مشهوداً ، وكانت الملائكة له شهوداً ، وكان الضلال صارخاً ، وكان الكفر مفقوداً ، والإسلام مولوداً ، وجعل الله الكفار لنار جهنم وقوداً... وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغاً ، البيضاء صنعا ، الخافقة هي وقلوب أعدائها ، الغالبة هي وعزائم أوليائها ، المستضاء بأنوارها إذا فتح عينها البشر ، وأشارت بأنامل العذبات (٥٤) إلى وجه النضر ، فاقتح بلد كذا وكذا ، وهذه أمصار ومدن ، وقد تسمى البلاد بلاداً وهي مزارع وفدن ، كل هذه ذوات معاقل ومعاقر ، وبحار وجزائر ،

ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة" ويقول أيضا: " وجعل الله ضلوع الكفار نار جهنم وقودا" (٦٢).

وهذا مستمد من قوله تعالى: " وضربت عليهم الذلة والمسكنة" (٦٣) و" ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة" (٦٤) و" وأولئك هم وقود النار" (٦٥).

وفي قوله عن كشف صلاح الدين لستر المناققين حوله: " فعرفهم في لحن القول" (٦٦)، مستمد من قوله تعالى " ولتعرفنهم في لحن القول" (٦٧) وهو في حق المناققين أيضا.

أما الصورة الفنية في هذه الرسائل الأدبية، فقد جاءت متكاملة الأقسام، في بنائها البلاغي من تشبيه واستعارة وكناية وتشخيص وتجسيم وتجسيد، وفي بنائها الموسيقي الذي يتضح في باب النثر من حيث التجنيس وإحكام السجع، والمواءمة بين فواصل الجمل، التي هي بمثابة الأشرطة في الشعر.

وسوف أختتم القول في بيان أجزاء الصورة في لوحة فنية رسمها القاضي الفاضل بقلمه، أو ريشته البارعة، وكيف أنه استطاع أن يوظف كل كوامن وطاقات الإبداع الفني، في سبيل التأثير في السامع، وحثه على معايشة الحدث معه، جريا على منطلق " العدو" عند تولستوي، أو أن الأديب المتمكن هو الذي يريك الحدث بأذنيك، إذ فانتك رؤيته بعينيك!

يقول القاضي الفاضل في رسالته القدسية إلى الخليفة العباسي: " وقد كان الخادم - يقصد صلاح الدين - لقيهم اللقاء الأولى فأمده الله بمداركته، وأنجده بملائكته، فكسرهم كسرة مابعدها جبر، وصرعهم

وطبيعة النثر الفني عامة، فهي رسائل فتوحات أرسلت إلى ديوان الخلافة في بغداد، وقد بسط كاتبوها الحديث عن الفتح القدسي، والآثار الناجمة عنه، كما تحدثوا عن الخليفة والخلافة، والفتاح، والمعركة، ووصف السلاح: السيوف، والرماح، والمنجنيقات، ووصف الجيوش، والأسوار، والقلعة، والبرج، والمفاوضات بين الجانبين، والعدو الصليبي المحتل، والمصير الذي آل إليه ملوكهم، وفرسانهم. وتسليم المدينة، وإعادة المسجد الأقصى إلى سالف عهده، بل إعادة بيت المقدس كله إلى عهده الإسلامي، وشكر الله على نصره، والدعوة إلى الاستمرار في الجهاد. والربط بين المقدسات الإسلامية، وبين الفتوح الصلاحية، والفتوح العمرية، وغير ذلك. ولا شك أن هذه كلها موضوعات جديرة بالتفصيل والاستقصاء في الحديث عنها (٥٩).

ويحسن التوقف في هذه الدراسة الفنية عند التناص مع القرآن الكريم خصوصا، لأن موضوع هذه الرسائل لا ينفك بحال عن الحديث عن مقدسات الإسلام، وكيفية الطريق إلى تحريرها، ولولا هذا التمسك بالقرآن الكريم لما تم التحرير، وقد اتضحت لنا شخصية القاضي الفاضل العلمية والثقافية، وكيف كانت نشأته على دراسة القرآن الكريم وحفظه، والحديث الشريف، وغيرها من أساسيات التربية الإسلامية التي تلقاها، ومن هنا نجد أثر ذلك جليا في رسائله بخاصة، وأدبه بعامه.

فمن ذلك حديثه عن الفتح القدسي واصفا إياه بالنعمة، يقول: " فإنها بحر للأقلام فيه سبح طويل" (٦٠) وهذا مستمد من قوله سبحانه وتعالى: " إن لك في النهار سبحا طويلا" (٦١).

وفي حديثه عن العدو الصليبي يقول: " وقد ضربت عليه الذلة والمسكنة، وبدل الله مكان السيئة الحسنة،

أما عناصر الحركة فهي جلية من مثل (تقارضن الضراب ، تبادلن الطعان، الخافقة هي وقلوب أعدائها)، واللون (الأسود وضده الأبيض) ، والبصري الضوئي (المستضاء بأنوارها) ، والصوتي السمعي (كان الضلال صارخا) ، وكل هذه الأجزاء وغيرها تتكاتف معا لتشكّل ما يعرف بالمشهد الكلي الموافق ، الذي يبني من وحدات جزئية ، أصغرها الصوت ، وأكبرها الجملة ، فالنص ، ليقدم لنا بهذا القاضي الفاضل صورة حقيقية عن الطريق التي سلكها صلاح الدين وجنوده إلى النصر والتحرير .

المراجع:

١. انظر في ترجمته: العماد الأصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) ، ت: د. شوقي ضيف ، وأحمد الزين ، ود. إحسان عباس ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ٣٥-٥٠ ، وعز الدين بن الأثير ، الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ١٢/١٥٩ ، وأبوشامة المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين، ت: د. محمد حلمي أحمد ، ١٩٦٢ ، ٢٤١/٢-٢٤٤ ، وابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ت: د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ٣/١٥٨-١٦٢ ، ود. محمد عبد الرحمن عطا الله ، رسائل القاضي الفاضل: دراسة تحليلية ، دار الحضارة ، طنطا ، ط١ ، ٢٠٠٠ ، ص ٢-١٥ . وسوف أتوقف على تلخيص سيرته من كتاب الدكتور محمد عبد الرحمن عطا الله ، نقلا عن مصادره ، لأنه أشملها وأوفاهها وأتمها .
٢. ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ٣٥٠/١٨ .
٣. العماد الأصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) ، ٣٦ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ١٨/٣٣٦ .
٤. العماد الأصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) ، ص ٤٥ .
٥. انظر في تفصيل القول عن هذه الآثار والرسائل : د. محمد عبد الرحمن عطا الله ، رسائل القاضي الفاضل : دراسة تحليلية ، ص ١٥-٢٦ .
٦. أبوشامة المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين ، ٢/٤ .
٧. انظر : د. عبد الجليل حسن عبد المهدي ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، دار البشير ، عمان ، ط١ ، ١٩٨٩ ، ص ٢٩-٤٧ .
٨. نفسه ، ص ٤٧-٦٢ .
٩. أبوشامة المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين ، ١/٢٥٣-٢٥٥ .

صرعة لا يعيش معها بمشيئة الله كفر ، وأسر عليهم من أسرت به السلاسل ، وقتل منهم من فتكت به المناصل ، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار، وعن أنصاف عجل ، فإنه قتلهم بالسيوف الأفلاق ، والرماح الأكسار ، فنيّلوا بثأر من السلاح ونالوه أيضا بثأر ، فكم أهلة سيوف تقارضن الضراب بها حتى عادت كالعراجين، وكم أنجم رماح تبادلن الطعان حتى صارت كالمطاعين ، وكم فارسية ركض عليها فارسها السهم إلى أجل فاختلته، وفغرت تلك القوس فاها فإذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة فافترسه ، وكان اليوم مشهودا ، وكانت الملائكة له شهودا ، وكان الضلال صارخا ، وكان الكفر مفقودا، والإسلام مولودا ، وجعل الله الكفار لنار جهنم وقودا ... وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغا، البيضاء صنعا ، الخافقة هي وقلوب أعدائها ، الغالبة هي وعزائم أوليائها ، المستضاء بأنوارها إذا فتح عينها البشر" (٦٨).

وفي هذا النص نشعر وكأننا أمام عدسة مصورة تتقل الأحداث ، تباعا ، في محاولة نطقية جسمانية محضة ، لمواكبة الحركة السريعة المتذبذبة في ميدان المعركة ، فموسيقى هذه الجمل تشيع في النفس ضوضاء المعارك ، واشتداد قراع السيوف .

وإذا نظرنا إلى جرس بعض الكلمات رأينا أن المباني منبئة عن المعاني ، ويكفي مثلا على ذلك هذه الكلمات : (المناصل ، الأفلاق ، الأكسار ، المطاعين) وكلها جموع تكسير تشي بما أحدثته من تكسير ، وكذلك الحروف الصامتة المطبقة المستعلية (ص ، ق ، ط) أو الصائتة التي تمد المعنى بمد الصوت (الألف في الكلمات الثلاث الأول ، والياء في الكلمة الأخيرة) .

٣٧. د . عبد الجليل حسن عبد المهدي ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، ص١٦٧ .
٣٨. انظر : أبو شامة المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين ، ١٧٠/٢-١٧٢ .
٣٩. نفسه .
٤٠. نفسه .
٤١. القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، من منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مصر ، ١٩٦٣ ، ٤٩٥/٦ .
٤٢. نفسه ، ٢٧٤/٦-٢٧٥ .
٤٣. القاضي الفاضل ، الدر التنظيم من ترسل عبد الرحيم ، ص ٣٥ .
٤٤. القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٣٢/٦ .
٤٥. د . عبد الجليل حسن عبد المهدي ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، ص ٣٤٠-٣٢٩ .
٤٦. القاضي الفاضل ، الدر التنظيم من ترسل عبد الرحيم ، ص ١٥ .
٤٧. القلقشندي ، صبح الأعشى ، ١١٢/٦-١١٢ .
٤٨. القاضي الفاضل ، الدر التنظيم من ترسل عبد الرحيم ، ص ٣٥ .
٤٩. د . عبد الجليل حسن عبد المهدي ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، ص ٣٤٨ .
٥٠. أجلت : كشفت .
٥١. سميت السيوف أطلاقاً لأنها تطلق الرؤوس .
٥٢. يقال جفنة أكسار : عظيمة موصلة .
٥٣. العراجين : جمع عرجون كزنبور ، وهو العزق ، أو إذا ببس واعوج .
٥٤. صفة لموصوف محذوف أي قوس فارسية .
٥٥. عذبة اللسان طرفه ، والمقصود أطراف الراية .
٥٦. انظر : القاضي الفاضل ، الدر التنظيم من ترسل عبد الرحيم ، ص ٢٢-٢٨ .
٥٧. د . عبد الجليل حسن عبد المهدي ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، ص ٣٤٩ .
٥٨. نفسه ، ٢٥٠ .
٥٩. نفسه ، ص ٢٥٦ . وجلي أن هذا الإطناب والتفصيل واضح الصورة في الرسالة القدسية ، وهي تستغرق عشرين صفحة في الدر التنظيم ، ١٥-٢٥ .
٦٠. القاضي الفاضل ، الدر التنظيم من ترسل عبد الرحيم ، ص ١٨ .
٦١. سورة المزمل ، الآية ٧ .
٦٢. القاضي الفاضل ، الدر التنظيم من ترسل عبد الرحيم ، ص ٢٢-٢٣ .
٦٣. سورة البقرة ، الآية ٦١ .
٦٤. سورة الأعراف ، الآية ٩٥ .
٦٥. سورة آل عمران ، الآية ١٠ .
٦٦. القاضي الفاضل ، الدر التنظيم من ترسل عبد الرحيم ، ص ٢٦ .
٦٧. سورة محمد ، الآية ٣٠ .
٦٨. انظر : القاضي الفاضل ، الدر التنظيم من ترسل عبد الرحيم ، ص ٢٢-٢٨ .

١٠. نفسه ، ٢٢٧/١-٢٢٨ . وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي هو أحد أمراء نور الدين ، وكان صلاح الدين قد حصره في منبج سنة ٥٧١ هـ .
١١. نفسه ، ٢٢٠/١ .
١٢. نفسه .
١٣. انظر : د . عبد الجليل حسن عبد المهدي ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، ص ٦٥ وما بعدها .
١٤. نفسه ، ص ١٥-١٧ .
١٥. القاضي الفاضل ، الدر التنظيم من ترسل عبد الرحيم ، اختيار : محيي الدين بن عبد الظاهر ، تحقيق : د . أحمد بدوي ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٩ . د . محمد سلام ، الأدب في العصر الأيوبي ، منشأة المعارف بالسكندرية ، ١٩٩٧ . ص ٤٥-٤٦ .
١٦. نفسه .
١٧. نفسه ، ص ١٥-٣٤ .
١٨. نفسه ، ص ٢١ .
١٩. نفسه ، ص ١٨ .
٢٠. نفسه .
٢١. أبو شامة المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين ، ٢/٢-٤ .
٢٢. نفسه ، ٤٨/٢ .
٢٣. نفسه ، ١٦١/١ .
٢٤. نفسه ، ٢/٢-٤ .
٢٥. ابن واصل الحموي ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ، خمسة أجزاء متفرقة ، طبع الأول منها في القاهرة ١٩٥٣ ، والثاني ١٩٥٧ ، والرابع والخامس حققهما ووضع حواشيهما د . حسنين محمد ربيع ، وقدم لهما د . سعيد عاشور ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ١٩٧٧ ، ٢/٢-٢٢٧-٢٢٩ .
٢٦. نفسه .
٢٧. د . عبد الجليل حسن عبد المهدي ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، ص ١٤٣ .
٢٨. ابن واصل الحموي ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ٢/٢-٢٢٧-٢٢٩ .
٢٩. القاضي الفاضل ، الدر التنظيم من ترسل عبد الرحيم ، ص ٢٩-٣٠ .
٣٠. نفسه ، ٢٣-٢٤ .
٣١. د . عبد الجليل حسن عبد المهدي ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، ص ١٥٤ .
٣٢. أبو شامة المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين ، ٨/٢ .
٣٣. انظر : أبو شامة المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين ، ١٢/٢-١٤ .
٣٤. نفسه ، ١٢٠/٢ ، ١٣٤-١٣٦ .
٣٥. نفسه ، ١٣٦/٢-١٣٧ .
٣٦. انظر في ذلك : د . عبد الجليل حسن عبد المهدي ، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ١٩٨٠ . و . د . عبد الجليل حسن عبد المهدي ، المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ١٩٨١ .